الفصل الأول

رحلة الأقدار

مقدمة

«القدرية» من خصائص رؤيتنا منذ أقدم العصور وهي لا تعني الاستسلام للمصير استسلامًا سلبيا خانعًا وفقا للتفسير الضيق بل في كثير من الأحيان تكون شجاعة العمل والصبر والكفاح بل والمغامرة وركوب المخاطر تقع كلها داخل القدرية، ومن أهم عناصر الإيمان بالقدر وبالقضاء المحتوم كما يقول المثل «المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين»، ولا يوجد تناقض بين العمل في الحياة بشتى صورها وبين «الأقدار» وما يعبر عنه البعض هو فقط تناقضًا ظاهريًا وهناك مواقف فلسفية تعرف مثل هذا التناقض بين اليأس الكوني وبين حرية الإنسان في تخطيط مصيره، بين القلق الوجودي وبين الاختيار.

و«الأقدار» لا يعلمها إلا خالق الأكوان فنحن نعمل في ظل ما نعلم وإدراكنا لا يستطيع كشف الحجب ومعرفة ما هو قادم إلا في بعض العلامات التي قد يكسو بها الله سبحانه وتعالى أحد عبادة لتدل على ما ينتظره، فيراها بعض أصحاب العلم وممن لديهم «حس» قد يصدق وقد لا يصدق ، كأن نرى طفلا نجيبًا وذكيًا وننظر في عينيه ونقول إن له مستقبل قياسا على الواقع الذي نراه وقد يختلف الأمر تمامًا وفي نفس الوقت قد يظهر فى مجال معين شخص لم يكن أحد يتوقع نبوغه وفي بعض الأحيان تحدث أشياء للإنسان تغير مسار حياته ربما يراها البعض نهاية لمسيرته، بينما يراها هو طريقًا جديدًا قد لا تكون معالمه واضحة ولكنه طريق يعلمه الله وقد وجهته إليه «الأقدار »ويحقق فيه ما لم يخطط له، فليس دورنا البحث عن الأقدار بل نعمل ونترك الأقدار لمقدرها .

* الكلمات هى مقدمة لحياة رجل أعطى حياته كلها لوطنه و استعان بالله ، ففتحت أمامه الأبواب وتيسرت الطرق فحفر التاريخ اسمه فى قلوب الناس وفى أعلى مراتب التاريخ ،فهو الرجل الوحيد الذى عمل فى أربع حقب من تاريخ مصر شغل خلالها أرفع وأهم المناصب بداية من عهد الملكية مرورا بعصور الجمهورية الثلاث فى سلسلة من العطاء المتواصل ،لم يكن مجرد وزير أو مسئول بل كان عالما ومثقفا وضع حلولا لمعظم مشاكل المحروسة لعقود طويلة، و حصل على العديد من المؤهلات العلمية فى شتى المجالات وأثرى المكتبات بمؤلفاته التى ما زال يعاد طبعها فى دور النشر العربية والعالمية حتى الآن ،وتعد مرجعا علميا وتاريخيا للباحثين،ولم يتوقف عطائه رغم تعديه العقد التاسع من العمر، وما زال مادة للإعلام فى أعظم وأجل المناسبات القومية ،فعندما نحتفل ب 23 يوليو نتذكره وفى العام 56 وكذا عيد التليفزيون وهيئة الاستعلامات وحرب أكتوبر المجيدة وكذا بصماته فى المجالس القومية المتخصصة و فى المناطق السياحية فى مصر والعالم العربى مثل مدينة الغردقة وسيدى عبد الرحمن ، ونقل معبد أبو سمبل وإنشاء السد العالى أعظم مشاريع القرن العشرين إنه أبو الإعلام المصرى الدكتور «عبد القادر حاتم » الذى أحب الجميع فحفر اسمه فى القلوب.

المبحث الأول

أحببت الناس فأحبوني

لعبت الأسرة والتربية الدينية دورا كبيرا فى حياتى فقد نشأت فى أسرة متدينة كانت الصلاة والقرآن أهم ما يميزها فلم يكن أحد منا ينام قبل أن يصلى العشاء ، وكان يوم الخميس هو ملتقى سماع القرآن حيث يأتى المقرأ إلى البيت لنستمع إليه فى شغف ونتعلم أمور الدين ، هذا علاوة على الملتقى القرآنى السنوى يوميا فى شهر رمضان ، فلم تكن هناك إذاعات أو تليفزيون كما هو الآن وهذا يعنى أن الناحية الدينية متوفرة منذ الصغر وقد استمر معى هذا الوازع الدينى وتربى عليه أبنائى ،و ما ترك تأثيرا كبيرا في نفسي أن والدي كان لديه مطحن دقيق في الإسكندرية، وكان يريد منى السفر إلى بلجيكا لدراسة النسيج ، ولكن الأقدار لعبت دورها ولقى ربه قبل أن أسافر ، وقبل موته أعطى لوالدتي خطاب به كل شيء ما له وما عليه، وجاء قدر الله ورحل عن دنيانا وفتحنا الخطاب وقمت بطلب كل الأسماء التى ذكرها لكى نعطى كل واحد منهم حقه ، وكان أغلبهم يهود وأجانب ،وبعد لقائى معهم أخبرتهم بوصيه الوالد وانه ترك كذا وكذا وهذا الخطاب به كل شيء ما له وما عليه، فطلبوا أن أتركهم بعض الوقت ، وعدت إليهم بعد نصف ساعة فقالوا لى والدك ليس عليه كمبيالة أو شيك بما ذكره فى وصيته فكيف نأخذ هذا المال ، وحاولت أن أثنيهم عن هذا القرار فرفضوا وانتهى الأمر وتعلمت من تلك القصة أن الكنز الحقيقى فى الحياة هو الشرف وحب الناس ، وكانت هذه هى وجهتى فى الحياة أحببت الناس فأحبنى الناس وقد سألت أكثر من مرة خلال حياتى العملية « لماذا يحبك الناس »؟ ،وقد نفعني حبى للناس

وحب الناس لى في حياتي وتعلمت منه ألا أكذب أو أشتم أو أتطاول على أحد طوال حياتى .. وبنفس الطريقة تربى أولادى .

* أحيانا تلازم الأقدار شخصًا قبل المولد وفي بعض الأحيان تكون في الطفولة أو الشباب أو في جميع مراحل العمر، وقد لعبت قدرية المولد دورًا كبيرً في نشأتى ، فقد ولد ت في حي «العطارين» أحد الأحياء العريقة بمدينة الإسكندرية والتحقت بمدرسة العطارين الابتدائية وهنا تدخلت الأقدار بأن يكون رفيق دربى دون أن أعلم جمال عبد الناصر وثالثنا الدكتور عبد العزيز كامل نائب رئيس الوزراء الأسبق، وكانت هذه المرحلة في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي وهي الفترة التي بدأ الشعب المصري ينتفض فيها بكل طوائفه ضد الاحتلال الإنجليزي الذي طال بقاءه بمصر، فكان لكل فرد دور حتى الأطفال كانوا يعبرون عن نبض الوطن بطريقتهم ، فكنا فى المدرسة الابتدائية نخرج فى مظاهرات تندد بالإنجليز وتطالب بخروجهم في مسيرات بطولية قد يسقط فيها العشرات منا شهداء وكان من بين تلك المدارس مدرسة العطارين الابتدائية وأذكر فى إحدى المرات خرجت فى مظاهرة من مدرسة العطارين وكان من زعمائها جمال عبد الناصر وكانت تندد بالإنجليز وبمن يتعاونون معهم من السرايا ضد المصريين وفي تلك الفترة كان رئيس وزراء مصر إسماعيل صدقي باشا ورفعنا لافتات تندد بالاحتلال وبمن يعاونون معهم وكنا نردد هتافات تندد بالإنجليز وحكومة صدقى وكان من بين تلك الهتافات «يسقط صدقي» - كان وقتها الاحتلال الإنجليزى مهيمن على كل شىء فحكمدار الإسكندرية إنجليزي والكونستبلات إما إنجليزي أومن مالطا أو قبرص والامتيازات الأجنبية كانت هي الفيصل فى أي نزاع فإذا حدثت مشاجرة بين مصري وأجنبي يتم القبض على المصري ويطلق سراح الأجنبي هذا بجانب أن المحلات الأجنبية كانت تملأ الإسكندرية فإذا أردت شراء شيء من أحد المحلات فعليك أن تستخدم الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية وكذلك الحال في دور السينما إذا دخلتها مساء تجد الأجانب يرتدون

ملابس «الردنجوت» الرسمية للسهرة بحيث يجلس هؤلاء في مكان ويجلس الوطنيون في مكان آخر ونفس الحال كان في الشوارع التي تحمل أسماء أجنبية أي أن الإسكندرية كانت معرضة لعملية مسخ هوية وهو ما جعل فيها نبرة الوطنية عالية جدًا لأننا كنا لا نشعر أننا لا نعيش في وطننا بل في وطن آخر وأصبح هناك سخط على كل ما هو أجنبي ومن يتعاون معه ومن هذا الجو انطلقت المظاهرة التي تنادي بسقوط صدقي وكنا نشاهد تلك المظاهرات وعندما اندلعت مظاهرة صدقي كان عمرى تقريبا 12 أو 13 عامًا ووجدناهم يقبضون علينا ويقدموننا للمحاكمة في محكمة المنشية بالإسكندرية وفي يوم المحاكمة جاء مكرم عبيد سكرتير عام حزب الوفد ليدافع عن الطلبة وكان صدقي باشا رجلا ماكرًا وشديد الدهاء فأرسل ثلاثة من رؤساء النيابة ليقاطعوا مكرم باشا في دفاعه. وعندما بدأ مكرم عبيد في مخاطبة المحكمة بقوله «سيادة الرئيس .. السادة المستشارين .. إنني سأقول الحقيقة في هذه الدعوى إن هؤلاء الشباب أبرياء» فإذا بالثلاثة الذين بعث بهم صدقي باشا يقاطعونه مشيرين إلى أن هذا كذب وكلما تكلم مكرم عبيد استمروا في مقاطعته قائلين هذا كذب وغير حقيقي« الأمر الذي دفعه للتوقف أكثر من مرة أثناء المرافعة حتى اضطر في نهاية الأمر إلى أن يخلع ثوب المحاماة ووضعه أمامه وقال «سيادة الرئيس حضرات المستشارين، قلت الصدق ثم أشار إلى رؤساء النيابة الثلاثة وقال: إنهم يكذبونني يريدون مني أن أقول الكذب ليصدقوني ولكنني أقول لهم بأعلى صوتي «فليحيا كذبي ... وليسقط صدقي» وأخذ مكرم عبيد يكرر بصوت عال «فليسقط صدقي فليسقط صدقي، فليسقط صدقي» ورددنا وراءه جميعًا يسقط صدقي مع تصفيق حاد بعد هذه الكلمات فما كان من المحكمة إلا أن رفعت الجلسة للمداولة وجاءت بعد ذلك وأعلنت الحكم ببراءة جميع الطلبة.. وإذا بصدقي باشا يرسل خطابًا ماكرًا لهيئة المحكمة يشكرهم على العدالة رغم حكمهم ببراءة الطلبة وهتافهم بسقوطه وقال إن هذه هي العدالة وأظهر أمام الرأي العام مدى احترامه للقضاء وبعد ثلاثة أشهر بعد أن هدأت الأمور قام بنقل القضاة إلى أقاصي الصعيد ومكثوا هناك ثلاثة سنوات ...

وهذا يعني أننا تعلمنا الوطنية عمليًا وتلك كانت سمة الشعب في ذلك الوقت.

مواقف للنحاس باشا

عندما كان النحاس باشا رئيس وزارة وكان هناك مؤتمر وفد بالإسكندرية وكان صدقي والمعارضة ضده وكان النحاس باشا واقفًا على المنصة ويقول أيها المواطنون وإذا بواحد من المجموعة المكونة من (50) فرد تقريبًا يقوم ويهتف يحيى النحاس باشا ويردد الباقين وراءه هذه الهتافات وكلما قال أيها المواطنون يهتفوا. فعلم النحاس أنهم أتو لكي يشوشوا عليه حتى لا يتحدث فقال النحاس«الياور بتاعي يروح للولد اللي هناك ده وشاور عليه وقال اللي بيهتف دا لازم يترفد وبعد أن ذهبوا إلى صاحب الهتاف وخطب النحاس وبعدما انتهى جاء له الياور وقال له «رفعت الباشا هذا الولد مش موظف بالحكومة فرد النحاس قائلاً أنا قلت يترفد.. عينوه وبعدين ارفدوه».

وموقف آخر علمنا الوطنية والنزاهة فى الطفولة فإن تجد النحاس باشا يأتي إلى البرلمان وهو يمسك «فرو زوجته» ويقول المعارضة تهاجمني وكان وقتها مكرم عبيد ضده ويقولون أنني اشتريت لزينب هانم زوجته «2 فرو» فأنا بالفعل اشتريت اثنين وهذه هي الفاتورة بثمنهم وقد قلت وقتها للسفير اشتريها وهات الفاتورة لأدفعها وبالفعل قمت بدفعها وهذا في مقدوري أن اشتريه فما سر هجومكم أنظر إلى تلك الشفافية والنزاهة التي تلعمناها.